الزيارة الثالثة

عادت بعد عام ومرت بنا.. كانت تنوي زيارة السعودية، أخبرتني أنها جاءت في الطائرة من منزل عبد الحكيم عامر وقالت بأنه مات مسموما ولم يمت منتحرا، كما أشاعت أجهزة عبد الناصر عنه في حينها! ومدحت السادات وقالت بأنه ينهج نهجا ديموقراطيا ويسمح للأحزاب أن تعود الى سابق عهدها..

انفردت بي قبل مجيء عفيف وقصت علي سيرة حياتها مع عفيف، أقسمت لي أنها لم تعرف رجلا غيره أبدا، ولكنه لم يصدقها حين زارتنا في عام 56 واتهمها بأنها تختلق هذه القصة لتورّطه سياسيا وتشهّر به..

قالت لي بأن ما جذبها لعفيف هو استقامته وشرفه وبعده عن التعصب الديني، وأنها التقت به أول مرّة عند باب الأمم المتحدة التي كان عفيف حينذاك، يحضر جلساتها.. دخلت برفقته وتم تعارفهما، ونمت علاقتهما يوما بعد الأخر.. وذات يوم كانا في جولة على الجبال.. وقفا معا قرب تمثال للمسيح، وتعاهدا على الزواج.. قصّت علي سيرتها في هلسنكي.. القصة نفسها التي ذكرها لي قبل زواجي وغضبه الشديد منها، ووصفه لها بأنها امرأة تسعى للشهرة بأي ثمن، محبة للظهور بوسائل مسرحية حتى تمنت لو أنها لم تعرفه قط ولم تتورط معه في علاقة عاطفية.. واسترسلت في وصف هذه العلاقة التي لم تتجاوز حد التلامس، حتى أنها يوم ذهبت للمشفى لتضع طفلها، اكتشف الطبيب بأنها لا تزال عذراء! وأردفت: "ربما لاتصدقي هذه القصة، ولن يصدقها عفيف لو قلتها له، ولكنني أنا نفسي آمنت بأن السماء تريدني لأمر ما، وحمدت الله أنني لم أستجب لأفكار راودتني بإجهاض الطفل وهو جنين.. ربما فعلت ذلك لأنني جبانة، أو لأنني مسيحية مؤمنة في أعماقي لا يمكن لي أن أقتل روحا حية نمت في رحمي.. قلت لنفسي "هذا الطفل هو ثمرة التقاء الشرق بالغرب، ثمرة حب حقيقي، وأسميته فولكمار أي "حبيب الشعب" ولكنني لم أكن اجتماعيا قادرة على الإحتفاظ به قربي، فأودعته عند امرأة كاثوليكية المذهب تربيه.. فعائلتي محافظة، وأخي الأكبر كان من شباب هتلر، ولن يغفر لي أبدا لو درى بأمري.. شخص واحد كان موظفا في الخارجية ثم أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية يعرف قصتي.. لقد أغرم بي وطلبني للزواج فرفضت، حدّثته بأمري وقلت له

بأن لي ابنا هو ثمرة علاقة بيني وبين ضابط كبير في سوريا.. نمت بيني وبينه بعد ذلك صداقة أخوية وساعدني كثيرا في دراستي وفي ايجاد عمل لي.. وذات يوم أرسل في مهمة الى دمشق، فسألني ان كنت أحب أن يطلع عفيف على وجود طفل هو والده، فقلت له "لاأريد!.. اسأله فقط ان كانت هلسنكي تذكّره بأحد ما لأعرف ردود فعله". ولكن بدا أن هلسنكي لا تذكره بأحد من الناس فانقطع ما بينهما من حديث عني".. سألتها:

–لماذا لم تخبريه في وقت مبكر عن وجود الطفل؟ قالت:

–بعثت اليه برسائل كثيرة ولكنه لم يكن يجيب عليها..

–هل أخبرته في تلك الرسائل عن وجود الطفل؟

أجابت بالنفي وأخبرتني السبب.. حدث توتر في علاقتهما قبل سفره.. ما كان يتساهل أبدا أن تباسط الرجال سواه، وهي كامرأة اجتماعية بطبيعتها، وكأنثى لديها هدف يتجاوز طموحات امرأة عادية في أن تكون ربة أسرة وحسب.. كانت تحب أن تستفسر من الرجال عن آرائهم وفلسفتهم في الحياة وطموحاتهم مما يجعل بينها وبين الذي تحاوره نوعا من الثقة ووحدة الحال مما لم يكن عفيف ليتقبله.. وبعد هلسنكي أخذ الصحفيون يلاحقونها ويسألونها عن الأسباب التي دفعتها لذلك التصرف، فكانت تحدثهم عن الحرب التي أودت بوالدها الذي كانت تحبه كل الحب وعن دمار ألمانيا التي شهدتها وهي طفلة صغيرة قبل الحرب ويافعة بعدها، وآلت على نفسها أن تعمل من أجل السلام، حتى لا تكون هناك حرب ثالثة لا في أوروبا ولا في العالم.. وأردفت:

–ومرة فاجأني مع أحد الصحفيين في أحد المقاهي، وكنا نتحدّث ونضحك، فلم يعجبه سلوكي.. لم يقل شيئا ودعاني للخروج معه في سيارته، وكنت في ذلك اليوم أريد أن أخبره بشيء حين تأكد لي حملي، وكان هو ينوي أن يخبرني بشيء آخر عن الأمر الذي صدر للضباط بعدم الزواج من أجنبية..

ما كنت لأقاطعها فأردفت:

–عرفت بهذا ليس في حينه، بل يوم زرتكم في عام 56 قال لي بأنه كان ينوي أن يصطحبني الى دمشق، ويعقد علي على الطريقة الإسلامية ويضع الشيشكلي أمام الأمر الواقع.. ولكن لا يمكن لك أن تتصوري ماذا جرى في النزهة الأخيرة لنا! أعمته الغيرة وتشاجرنا في الطريق، ووصفني بأنني امرأة انتهازية تحب أن تثير الإنتباه، ويستهويها

إعجاب الرجال بها، تريد أن يكون لها Confidence مع كل الرجال، وأن هذه صفات الجواري اللواتي يشتريهن الرجل المسلم للمتعة، لا صفات الحرّات من النساء رفيقات الرجال!.

لست أذكر كل ما قاله لي، لقد أهانني وجرحني في الصميم بحيث كرهت نفسي، وبدوت صغيرة جدا لعيني.. قلت له: "أوقف السيارة! والاّ فانني أفتحها وأرمي نفسي منها!

أوقف السيارة فخرجت.. لم يستوقفني، لم يعتذر عن إهانته لي.. كنا قد توغلنا في الطريق، فتركني ورجع أدراجه.. لم يكن في حقيبتي حتى بعض المال لأستأجر سيارة.. عدت مشيا والغضب والمهانة يعضان قلبي.. كنت أحدث نفسي وأقول أن هذا الرجل لا يصلح لي أبدا، لن أكون نفسي معه أبدا، سيقمعني بغيرته ويحولني الى امرأة منجبة للأطفال، وعوّلت على أن أجهض نفسي وأقطع علاقتي معه ولكنني لم أفعل..

لاتستطيعين تصوّر الأذى الذي سببه لي.. هجرني ثم غاب عني دون كلمة، وسافر الى بلده وأنا في بلد غريب أقوم بعمل مؤقت في الترجمة.. كنا قد حضرنا ذات يوم مسرحية شكسبير "أوثيللو" وكنت أشاهد في مصير ديدمونة مستقبلي معه لو تزوجته.. ولكنني فشلت أن أقتلعه من قلبي، أو أن أجهض ثمرة حب حقيقي في حياتي.. راسلته دون جدوى فلم يكن يرد علي، والطفل ينمو يوما بعد يوم في أحشائي، ولا أعرف ما أصنع به..

عندما جئت في عام 56 لأرى عفيف كان الطفل في الثالثة تربيه لي امرأة ألمانية كاثوليكية كانت تعيش في باريس، ثم انتقلت الى ألمانيا، وانتقلت أنا الى الخارجية لأعمل كمترجمة..

ما كنت أعلم أن عفيف تزوج، ولم أستطع تصوّر ردود فعله حينذاك، والآن وقد أنهى الصبي المرحلة الثانوية، وحصل على منحة لدراسة اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة، أريد أن يعترف والده به.. لأنه لا مستقبل له بعيد المدى من دون ذلك، فهو سيدرس القانون، وستكون له فرص كبيرة للعمل في الخارجية.. انني أريد له أن يوجه نشاطه واهتمامه الى الشرق الأوسط بدراسة العربية بين أهله وأخوته لعام أو عامين قبل

أن يلتحق بجامعته، ولكن عفيف يرفض هذا الأمر.. انه يحتج بأن مستقبل فولكمار أن يبدأ دراسة القانون في بلده قبل أن يوجه نشاطه الى دراسة العربية.. قلت لها:

-عفيف معه حق، تدارست معه وضع فولكمار ليلة البارحة.. لوكان أخبرني عنه في عام 56 لكنت ربيته مع أبنائي بكل حب، وما كانت هناك مشكلة.. أما الآن نحن نمرّ بمصاعب كثيرة بعد حرب تشرين، مادية وسياسية.. ونكاد لا نعرف كيف ندبر شؤون أولادنا.. ان مجيء فولكمار في هذه الآونة لن يجعله مرتاحا بيننا، وبقاؤه عامين لدراسة العربية تجعله متخلفا في دراسته عن سلام التي تصغره بثلاثة أعوام دراسية، وعن يوسف أيضا الذي أصبح في سنته الأولى الجامعية.. أولادنا متفوقون في دراستهم ونأمل أن تتاح لهم منح للدراسة في الخارج، وهذا بفضل والدهم الذي يكرس وقتا كبيرا لتدريسهم.. ان سلام حين تأتي بعلاماتها، ولا تكون تامة في الرياضيات والفيزياء يقيم الدنيا ويقعدها عليها حتى لو كانت أولى صفها، وكذلك يوسف ونضال، حتى تشاجرت أنا يوما معه بشأن رفاه وقلت له: "دعها بسلام! لاتشغل نفسك بها.. انها في الصف الخاص للممتازين والمدرسة تتكفل بتدريبها".. ان وضعنا لا يحتمل فشل أولادنا في الدراسة فهم كل ثروتنا.. حتى أنا رفض أن أعمل كمدرسة وأساعده حتى لا أغيب طويلا عن البيت، وأنا أحببت ذلك.. درست جيدا طباعه خلال السنين التي عشتها معه، وأعرف المدى الذي سيصل اليه بإصراره على الهدف الذي كرّس له حياته.. أردت أن أكون رفيقة عمره ونضاله، فأنا واياه نجلس الى هذه الطاولة، هو يكتب أبحاثه، وأنا أكتب قصصي بالرغم أننا لانجد ناشرا الاّ أننا نستمتع بعملنا.. كنت أعتقد أنني لو ذهبت أعمل وبقي هو في البيت فإنني سأجرح كرامته في الصميم، فكنت أكتفي براتبه التقاعدي وأقوم بكل الأعمال التوفيرية من خياطة للأولاد الى جانب متطلبات البيت فتكلفني جهدا أكبر مما لوكنت أعمل خارج البيت.. ولكن راحته النفسية كانت تهمني أكثر من كسب المال!..

-كنت أظن أنه يتصرف كذلك لأنه لا يزال يشك بأبوّته لفولكمار ولا يصدقني!

-كان ذلك في الماضي ولكن ليس الآن، فما الذي يجعلك تختلقين هذه القصة بعد تلك السنين الطويلة، وبعد أن فقد سيطرته على الأحداث وأزيح من مركز قوته؟ ولكن هناك أمر يقلقه تجاه أولاده فهو مثلهم الأعلى ولا يحب أن تهتز صورته في أعينهم وهم في سن المراهقة.. رفاه هي الوحيدة التي لاتزال طفلة.. يجب أن نعدهم نفسيا لتقبل مثل

هذا الأمر، الا ترين ذلك؟ وفولكمار عليه أن يكون مستعدا لتقبل ذلك الأب الصارم الذي لا يتغاضى عن الهفوات.. من الأفضل أن يبرهن بجده واجتهاده واستقامته، وحبه لهذا الوطن أنه أهل ليكون ابن هذا الوالد الذي لا يملك ثروة يعطيه اياها، ولكنه قادر أن يعطيه سمعة تاريخية تبقى معه طوال حياته.. وتقي أنه حين يكسب ثقة والده، سأقوم أنا نفسي بتدريسه اللغة العربية!

جرت أحاديث كثيرة بينها وبين عفيف بمزيج من اللغة الإنجليزية التي لا يتقنها عفيف واللغة الفرنسية التي لا تتقنها هي.. وكنت كثيرا ما أترجم بينهما..

ماكنت قد قرأت حينذاك كتاب جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة حينذاك "دم ابراهيم" الذي ترجمته صحيفة الشرق الأوسط على حلقات فيما بعد.. كان حديثها معنا حينذاك هو ملخص لهذا الكتاب.. أما ردود فعل عفيف فكانت مزيجا من الثناء على ذكائها والسخرية بسذاجة الحلول التي تعرضها لقضية بالغة التعقيد.. قال لها:

-لا تقحمي نفسك في هذه القضية، فلن تجدي أذنا صاغية لا من الفلسطينيين الذين ينتزع منهم وطنهم، ولا من العرب الذين تحل هذه القضية على حسابهم، ولا من إسرائيل التي احتلت أراض بالقوة متجاوزة كل القوانين الدولية وأخذت في بناء مستعمراتها على الفور فيها.. ولما قالت له بأن التسوية السلمية هي في صالح كل دول العالم، في الغرب كما في الشرق، ومن يقف في طريقها يتبع قضية خاسرة، وقد يتردى الوضع، والخلافات القائمة قد تؤدي الى استخدام أسلحة نووية أو مجابهة عسكرية بين الدولتين العظميين أجابها:

-لا تخافي من حرب نووية بين المعسكرين.. فليس من عاقل في الشرق ولا في الغرب يثير حربا نووية من أجل استقرار اسرائيل، بل على العكس، ان الإمبريالية الأميركية، هي التي تستخدم إسرائيل كمخلب قط للسيطرة على العالم ونهب ثرواته، وتمارس الحروب الصغيرة والفتن الداخلية لحرمان هذه البلاد من الإستقرار!.. جرى الكثير من الأحاديث بين سينا موريا وعفيف كنت فيها مستمعة.. لم يغير عفيف شيئا من مواقفه عن العام الذي مضى لا بالنسبة للقصة الخاصة بها، ولا للسياسة العامة التي تتبناها وسافرت الى السعودية والأمور كلها معلقة..

عادت سينا موريا من السعودية بعد أن قابلت الملك فيصل هناك وانفردت بعفيف في غرفة الجلوس، لم أدر ما جرى بينهما: كنت مضطرة لأذهب الى المطبخ لإعداد الطعام، واذا بها تدخل علي وتقول بأنها ذاهبة الى صيدنايا لتزور كنيستها وتقابل أحد المطارنة هناك.. وأنها لن تعود الاّ مساء!

دخل عفيف الى المطبخ بعد أن غادرت وقال لي:

–لا يعجبني أن تجعل من بيتي محطة لتقابل هذا وذاك، وتوهمهم بأنني موافق على مشروعها واقتراحاتها!

عادت من صيدنايا عند المساء تحمل لنا صور قديسين وقديسات، وأهدتنا مجموعة منها، وبعد تناول العشاء انفردت بعفيف وأخبرته أن زيارتها كانت موفقة ولكنني لم أسمع التفاصيل.. تكرر ذلك في اليوم التالي اذ زارت شيخا في الجامع الأموي وزارت قادة فلسطينيين حيث تنزل في فندق الشيراتون، وفي اليوم الثالث زارت وزير اقتصاد ووزير خارجية ومسؤول في وزارة الخارجية، وعفيف يبدو متذمرا ضيق الصدر، وأخيرا قرّ قرارها على مقابلة رئيس الدولة، فطفح الكيل معه.. كنت كعادتي مشغولة بشؤون المطبخ من غسيل ونشر فسمعت شجارا بينهما.. كان صوت عفيف يعلو وهو في أشد الغضب "لاتدوسي بيتي ان جئت في مرة مقبلة.. لملمي أغراضك الآن وانصرفي! أنت الشيطان نفسه!"

كانت ترتجف وهي ترد عليه: "بل أنت الشيطان، وستندم كثيرا على موقفك من دعم الإرهابيين، وستعلم يوما أن ليس هناك من خدم بلادك كما فعلت"..

لملمت حاجاتها وذهبت.. ان انفجار عفيف في وجهها كان كالبركان، لم يحدث في حياتي أنني رأيته في مثل هذا الغضب.. والتزمت الصمت، لم أطلب منه تفسيرا لذلك.. كان واضحا أن المشروع الذي تحدثت عنه وكان يقول لها أن أحدا من الفلسطينيين لن يرضى به، قد وافق عليه كثيرون ممن تقابلهم.. شرح لها الأسباب لرفضه، ولكنها استمرت في أن تتجاوزه الى غيره..

خيل الي أنها قطيعة أبدية بينها وبينه، ولكن بعد أسبوع وصلتنا رسالة منها.. كانت تتكلم فيها كلاما مبهما عن الجولان..

مزّق عفيف الرسالة وقال: "ليس عندي شك في أنها من أعوان كيسنجر الذي يعمل على ضرب المقاومة في لبنان!"

* * *